

رعوف عباس - المؤرخ الموضوعي

بقلم: فاروق يوسف إسكندر

13 سبتمبر 2011

في النصف الأول من شهر يوليو عام ٢٠٠٨ رحل عن عالمنا المؤرخ الدكتور رعوف عباس حصل على ليسانس التاريخ من كلية الآداب جامعة عين شمس في مايو عام ١٩٦١ وعلى الماجستير نوفمبر ١٩٦٦ والدكتوراه يناير ١٩٧١ وواصل طريقه في البحث العلمي بمختلف أشكاله من الكتاب والمقال والمحاضرات العامة والندوات المتخصصة والترجمة والتحرير

رغم الموضوعية الصادقة في كتابته للتاريخ وإستقلاله السياسي... إلا أن ذلك لم يمنعه من الإنخراط في الحركات السياسية المعارضة لنظام الحكم

في مذكراته "خطى مشيناها" كشف لأول مرة عن إنخراطه في مجموعة 9 مارس من أجل تحقيق إستقلال الجامعة ثم حركة كفاية من أجل التغيير.

طوال فترة تلمذته كان منكبا على القراءة في موضوع التاريخ حسب المقررات الدراسية وفي إطار التوجهات الفكرية لأساتذته كل حسب تفكيره، وابتعد عن النشاط السياسي شأن كثير من أبناء جيله ولما عين بعد تخرجه في إحدى شركات القطاع العام في مطلع عام 1962 كان الاتحاد الاشتراكي هو التنظيم القائم ومع ذلك لم يفكر في أن يرشح نفسه في الوحدة الأساسية بالشركة وسرعان ما ترك الشركة في أواخر عام 1966 عندما حصل على منحة تفرغ لدراسة الدكتوراه بجامعة عين شمس - وكان الوقت آنذاك زمن منظمة الشباب الاشتراكي ولكنة لم يلتحق بالدورات الخاصة لإعداد قيادات الشباب في مختلف قطاعات التعليم والإنتاج والخدمات - وعندما بدأت الحياة الحزبية من جديد زمن السادات (1976 - 1977) لم ينضم إلى أى حزب من الأحزاب التي ظهرت على الساحة، وكلما شهد الصراعات الحزبية والتصفيات السياسية تمسك أكثر فأكثر بموقفه.

تاريخ مصر الاجتماعي

وهكذا نشأ رعوف عباس بعيدا عن السياسة وتفرغ للبحث العلمي وإعداد مدرسة لتغطية تاريخ مصر الاجتماعي - وكان قد أعد رسالته للماجستير عن تاريخ الحركات العمالية في مصر، والدكتوراه عن الملكيات الزراعية الكبيرة ودراسة عن جماعة النهضة القومية في مصر وحزب الفلاح الاشتراكي وهنرى كوربييل والحركة الشيوعية المصرية وغير ذلك من الدراسات في مجالات التاريخ الاجتماعي - الثقافي حتى ظن البعض ان يكون يساريا سياسيا - فليس من يكتب في قضايا التاريخ الاجتماعي الاقتصادي يكون بالضرورة عضوا في تنظيم سياسي يسارى.

ورغم هذه الموضوعية الصارمة في كتابة التاريخ عند رعوف عباس واستقلاله السياسي إلا ان ذلك لم يمنعه من الانضمام مؤخرا إلى حركات سياسية معارضة بحثا عن عدالة الحكم ونزاهته، وهو ما كشف عنه في مذكرا ته "خطى مشيناها"، وفي ارتباطه بمجموعة 9 مارس من اجل استقلال الجامعة، ثم حركة "كفاية" من اجل التغيير، الأمر الذي جعل البعض يظن انه اندمج في المعارضة السياسية لكي يبقى التأكيد على أن الموقف السياسي عنده كما بدأ والحال كذلك ملتزما إلا أنه في البحث العلمي ظل موضوعيا.

كما أن رعوف عباس له رصيد في النهوض بالجمعية التاريخية والوصول بها إلى بر الأمان، فقد استفاد من مصادرها التاريخية وهو طالب بمرحلة الدراسات العليا في جامعة عين شمس، وعندما تعرضت الجمعية إلى الإفلاس وكانت محتوياتها تلقى في الطريق بعد أن رفع صاحب العقار الذي كانت تقطنه في البناية رقم ٢ شارع ناصر الدين المتفرع من البستان قضية لطردها لعجزها عن سداد الاجار.

انضم رعوف عباس إلى مجلس إدارة الجمعية بمعاونة أستاذه الدكتور أحمد عزت عبد الكريم، ثم اختير أمينا للصندوق في 1992/9/27 وفي عام 1993 تولى منصب الأمين العام للجمعية، وفي خلال ذلك بذل جهودا مضيئة لتطويرها ورفعة شأنها وفي عام 1999 تولى رعوف عباس رئاسة الجمعية خلفا للمرحوم الدكتور إبراهيم نصحي قاسم وخلال ذلك تم سداد ديون الجمعية، وتعددت العلاقات بالمؤسسات الثقافية خاصة المجلس الأعلى للثقافة ودار الكتب، كما توثقت

العلاقات بكل العاملين بحقل الدراسات الإنسانية على مختلف أطرافهم سواء في مصر أو أوروبا أو أمريكا ، حيث توافدوا على الجمعية يشاركون في نشاطها ، وسداد ديون الإيجار بعد أن لقيت الجمعية استجابة من الشيخ سلطان الفاسمي وأهداها قصرا خاصا في مدينة نصر في ٢٢ مايو عام 2001 وكان ذلك بمثابة انطلاقة مهمة لزيادة نشاط الجمعية في جانب المحاضرات وحلقات النقاش وإتسع مجالها في مجال النشر لمجلتها العربية وطباعة البحوث للندوات، كما فتحت الجمعية مكتبها الزاخرة لكل الباحثين في اليوم كله بعد أن كانت مقتصرة على الفترة المسائية.

وهكذا كان رءوف عباس حريصا على أن تأخذ الجمعية التاريخية مكانتها اللائقة بها، وهكذا كان عشقه لمصر التي علمته، وكان انتماؤه لها مبهرا.

تطور الرأسمالية

كما يعد رءوف عباس وأحدا من شوامخ المترجمين في مجال التاريخ الحديث والمعاصر، وبلغت كتبه المترجمة تسعة كتب ضخمة ضمت آلاف الصفحات فلم يكد يسافر إلى اليابان في مهمة علمية في الستينات حتى وقع على كتاب هاتشيا عن هيروشيما والذي يؤرخ لفصف هيروشيما بالسلح النووي الأمريكي وآثاره المدمرة، فترجم هذه اليوميات على شهادات الناجين وأصدرها في كتاب على نفقته الخاصة وكانت هذه باكورة ترجماته عام 1975 .

بعد ثلاث سنوات نشر ترجمة رصينة لكتاب "موريس دوب" دراسات في تطور الرأسمالية 1978 وهو من المراجع المهمة في التاريخ الاقتصادي العالمي التي قدمت نظرية متكاملة للتطور الاقتصادي، وقد استغرق نحو ثلاث سنوات في ترجمته لان المؤلف له طريقة خاصة في عرض أفكاره واستنباط النتائج، النتائج تحتاج بعد ترجمتها إلى استيعاب وهضم كامل ثم نقل أمين إلى اللغة العربية وهو ما نجح فيه رءوف عباس حتى جعل المؤلف وكأنه يخاطب القارئ العربي بلسانه ولم يكتفى بترجمة النص الأصلي للمؤلف بل قام بترجمة الحوار العلمي الخصب الذي دار حول الكتاب.

كذلك قدم رءوف عباس عام 1983 ترجمة لكتاب الكسندر شولس عن الحركة الوطنية المصرية من زمن الثورة العراقية التي نشرت تحت عنوان "مصر للمصريين - أزمة مصر الإجتماعية والسياسية من عام 1878 -1882" نال به درجة الدكتوراه في ألمانيا عام 1981، وقدم فيه رؤية مؤرخ غربي لحقبة من تاريخ مصر مهمة من الزوايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية من خلال مصادر قلما تتاح لمؤرخ واحد، فضلا عن موضوعية المؤلف التي لم تتوفر للكتاب الإنجليزي والفرنسيين.

وفي عام 1990 عهد إليه مركز الدراسات للوحدة العربية بترجمة سفر ضخم ألفه الأستاذ شارل عيسوي تحت عنوان، "التاريخ الاقتصادي للهلل الخصب 1800-1919"، وهو من الأعمال التأسيسية الرصينة في التاريخ الاقتصادي في القرن التاسع عشر لبلدان الهلال الخصيب العراق وسوريا ولبنان وفلسطين والأردن في عصر تكالب المصالح الغربية على بلدان المنطقة، ويشكل الكتاب حصيلة جهد المؤلف الذي يملك خبرة كبيرة لاقتصاديات المنطقة فجاء ليسد فراغا في اللغة الفرنسية في ذلك المجال من التاريخ.

تجار القاهرة

وتتضح في رءوف عباس روح العالم عندما يترجم كتاب زميلته الدكتورة "نبيللى حنا" عن تجار القاهرة في العصر العثماني فينشر الترجمة عام 1997 بمقدمة ضافية تبلور قضية مهمة لا تزال تشغل بال المؤرخين المهتمين بالعصر العثماني وهي قضية النهضة والحداثة في هذا العصر تحت ضوء المصادر التاريخية الجديدة من وثائق المحاكم الشرعية والمخطوطات وغيرها والتي تخالف المدرسة الإستشراقية التي تجعل نهضة بلداننا تدور في تلك المركزية الأوروبية.

كذلك قدم رءوف عباس ترجمة لكتاب نبيللى حنا التالي عن "ثقافة الطبقة الوسطى في مصر العثمانية بين القرنين 16 و18"، تلك الترجمة التي صدرت عام 2002 مشيرا إلى أن تاريخ الثقافة من المجالات المهمة في البحث التاريخي وهو ما تفقّر إليه المكتبة العربية تأليفا و ترجمة.

وأذكر أنني سألته صيف عام 2001 ماذا تفعل الآن؟، ففاجأني بقوله أنه يترجم مذكرات السير رونالد ستورس التي صدرت عام 1927 والمستشار الشرقي للسفارة البريطانية في مصر والحاكم العسكري للقدس، والذي لعب دورا خطيرا في توجيه صناعة القرار الخاص بالسياسة البريطانية في المنطقة من خلال موقعة كخبير للشئون العربية، وهذا الكتاب لم يطلع عليه احد وان يفيد منه ورغم ذلك لم يقدم على ترجمته لضخامة حجمه 611 صفحة وصعوبة أسلوبه وحساسية ما يتناوله من أمور، لكن أستاذنا أقدم على ترجمته ونشره في المشروع القومي للترجمة عام 2004 تحت عنوان "توجهات بريطانية شرقية".

فراغنة من؟

في عام 2005 صدر له عن المشروع القومي للترجمة كتابان في غاية الأهمية أولهما كتاب دونالد ريد "فراغنة من؟ تاريخ الثقافة المصرية" يؤرخ لعلم المصريات وصلته بالهيمنة الإمبريالية ويلخص الأفكار التي رددتها الكتابات الغربية

بشأن عدم أحقية المصريين بآثار بلادهم باعتبارهم لا يقدرّون قيمتها فيرصد المؤلف كتابات الجبرتي والطهطاوى وعلى مبارك عن الآثار وعن تاريخ مصر القديم موضحا وعيهم بالأهمية التاريخية للآثار، كما اهتم ريد بالتأريخ لرواد علم الآثار المصرية.

وثانيهما كتاب روجر أوين عن "اللورد كرومر الإمبريالى والحاكم العسكرى" والذى صدر بالإنجليزية عام 2004 وتكمن أهمية الكتاب فى انه يؤرخ لكرومر الذى كان الحاكم العسكرى الحقيقى لمصر من 1883- 1907 ورغم أهمية الكتاب ومصادقية المؤلف إلا انه إنتقد منهج المؤلف باعتباره سرديا لا يتسم بالتحليل كما انه أغفل ما أنتجه المؤرخون المصريون مما حرّمه من إبراز وجهة النظر المصرية فى سياسات كرومر.

من المهم ان نلفت النظر إلى المقدمات النقدية التى قدم بها رءوف عباس ترجماته وهى تكشف النظرة العلمية العميقة التى تحسن العمل المترجم وتميزه كأستاذ متميز ومثقف رفيع.

<http://www.alkaheranews.com/pdf/588/p.06.588.pdf>